

المجلد 09 / العدد 02 / ديسمبر (2025)، ص.ص. 528-539

**هجنة الفضاء الثالث في رواية "القاهرة الصغيرة" لعامرة لخص – وفق نظرية هومي بابا -
The third space hybridization in the novel "Little Cairo" by Amara Lakhous
– According to Homi Bhabha's Theory.**

خولة صالح
salah.khawla@univ-guelma.dz

مخبر الدراسات اللغوية والأدبية، جامعة 8 ماي 1945
(الجزائر)

تاريخ النشر: 2025/12/02

تاريخ القبول: 2025/9/06

تاريخ الاستلام: 2025/01/1

ملخص:

تتناول رواية "القاهرة الصغيرة" للروائي الجزائري عمارة لخص مفهوم "الهجنة الثقافية" بوصفه مجالا لإعادة تشكيل الهويات والثقافات في سياق العولمة والهجرة. تسلط الرواية الضوء على التفاعل الثقافي والديني والاجتماعي بين شخصيات من خلفيات متنوعة في حي متعدد الثقافات بإيطاليا. تهدف الدراسة إلى استكشاف كيفية تمثيل الرواية لهذا الفضاء الهجين بوصفه منطقة للتفاوض وإعادة بناء الهوية، بعيداً عن الثنائية التقليدية بين "الأنا" و"الآخر". ومن أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة أن الرواية تظهر الهجنة كعملية ديناميكية تُثري التجربة الإنسانية، لكنها تكشف أيضاً عن التوترات الناتجة عن التفاوت الاجتماعي والسياسي مما يعكس التحديات التي تواجه المجتمعات متعددة الثقافات في العالم المعاصر. تمثل هجنة الفضاء الثالث في رواية "القاهرة الصغيرة" وفق هومي بابا في إعادة تشكيل الهويات من خلال التفاعلات الثقافية المتداخلة بين المهاجرين والمجتمع المضيف.

كلمات مفتاحية: الهجنة، الثقافة، الهجرة، هومي بابا، الكولونيالية.

Abstract:

The novel "Little Cairo" by Algerian author Amara Lakhous examines hybridity of culture, a concept rooted in reshaping identities and cultures within globalization and migration contexts. It portrays a multicultural neighborhood in Italy where characters from diverse backgrounds interact culturally, religiously, and socially.

The study explores how the novel presents the third space as a platform for identity negotiation, moving beyond the binary of "self" and "other." Hybridity is depicted as a dynamic process enriching human experience but also exposing tensions due to social and political inequalities.

Keywords: Hybridity; culture; Migration; Homi Bhabha; Colonialism.

مقدمة:

يُعدّ مفهوم "الهجنة الثقافية" الذي قدّمه هومي بابا من أبرز المفاتيح النظرية لفهم تعقيدات التفاعل الثقافي في عالم ما بعد الكولونيالية، إذ يسلط الضوء على المساحات الرمزية التي تنشأ عند التقاء ثقافات متعددة، حيث لا تسود ثقافة واحدة ولا تقصّي أخرى بل يحدث تفاوض دائم يفرز أشكالاً جديدة من الالتقاء والمعنى والهوية. في هذا الفضاء تتفكك التصنيفات الصلبة مثل "الذات" و"الآخر"، ويفتح المجال أمام تشكيلات ثقافية مرنة وتُعيد النظر في مفاهيم التماهي والالتقاء والاختلاف. إنّ الهجنة هنا لا تُفهم كمزج سطحي بين عناصر متباينة بل كعملية مستمرة لإنتاج معاني جديدة من خلال الاحتكاك، والتوتر، وإعادة التفسير.

تتجسد هذه المفاهيم النظرية بعمق في رواية القاهرة الصغيرة للكاتب الجزائري "عمارة لآوص"، التي تُعدّ نصّاً أدبياً معاصراً يستلهم قضايا الهوية والهجرة من منظور مغاربي يعيش في أوروبا. وتدور أحداث الرواية في أحد أحياء العاصمة الإيطالية روما، حيث تلتقي الجاليات العربية خصوصاً الجزائرية بالآتمع الإيطالي في سياق يومي يشهد صداماً وتداخلاً مستمراً بين المرجعيات الثقافية والدينية. وتكشف الرواية عبر سردها المتعدد الأصوات عن واقع معقّد، لا يُختزل في ثنائية "مهاجر/مواطن" بل يُعيد تشكيل ذاته عبر آآارب الأفراد الذين يواجهون تحديات التكيف والانآماء ويخوضون عملية تفاوض يومية مع ثقافات متعددة.

تمثّل الهجنة الثقافية في الرواية مظهرًا جوهريًا في بنية النص؛ فهي تظهر في المستوى اللغوي من خلال التداخل بين العربية والفرنسية والإيطالية، كما تظهر في وعي الشخصيات التي تتأرجح بين موروثها الثقافي الأصلي ومتطلبات البيئة الجديدة. كما توظف الرواية السخرية، والأسلوب الحوارى، وتعدد وجهات النظر لتجسيد تلك الحالة "الهجينة" التي لا تنتهي كليًا إلى أيّ معسكر بل تعبر الحدود وتفضح التناقضات.

الرواية لا تحتفي فقط بالتعددية، بل تكشف في الآآن ذاته عن التوترات التي تصاحبها: مشاعر الرفض، التمييز، فقدان الجذور، أو الانآماء المزدوج وتُجسّد هذه التوترات من خلال شخصيات تعيش بين عالمين، ولا تجد نفسها ممثلة بالكامل في أيّ منها وفي هذه المساحة الرمادية - الفضاء الثالث - تتشكل هُويات جديدة قد تكون مؤقتة، مشوشة، لكنها تعبر عن واقع إنساني حتّى يتجاوز القوالب الجامدة للانآماء القوي أو الدينى أو اللغوي.

ترتكز هذه الدراسة على تحليل رواية القاهرة الصغيرة عبر منظور هومي بابا، سعيًا إلى استكشاف كيف تُبنى الفضاءات الهجينة في النص، وكيف تُأرس الشخصيات تفاوضها الهوياتى في بيئة متعددة ومتوترة وتعتمد الدراسة على منهج تحليلى-تأويلى يدمج بين التحليل النصي والإطار النظري لما بعد الكولونىالية، لفهم عمق التجربة الإنسانية كما تعكسها الرواية.

تُطرح إشكالية هذا البحث من خلال التساؤل: كيف تتجلى الهجنة الثقافية في رواية القاهرة الصغيرة وفقًا لنظرية هومي بابا؟

أولاً- مفهوم "الهجنة الثقافية" و"الفضاء الثالث" والعلاقة بينهما وفقًا لهومي بابا:

في سياق الدراسات الثقافية لما بعد الكولونىالية، يُعد هومي بابا أحد أبرز المفكرين الذين قدموا أدوات نظرية لفهم ديناميكيات الهوية والثقافة في سياقات الهجنة والاختلاف. في كتابه الشهير "موقع الثقافة" «The location of Culture» يطرح بابا مفهومين مركزيين هما "الهجنة الثقافية" و"الفضاء الثالث"، اللذين أصبحا من الركائز النظرية لفهم التداخلات الثقافية في العالم المعاصر.

1- الهجنة الثقافية:

الهجنة مصطلح يُستخدم للإشارة إلى عملية التداخل أو التمازج بين عناصر مختلفة في الأصل والثقافة واللغة، وينتج عنها كيان جديد يحمل خصائص مزدوجة أو متعددة ولا تقتصر الهجنة على المجال البيولوجى كما في تهجين النباتات والحيوانات، بل امتدت لتشمل مجالات الفكر والثقافة واللغة والأدب، حيث تُعبر عن تفاعل مكونات متباينة تُنتج شكلًا هجينًا يعكس تعددية في الانآماء والتعبير وفي السياق الثقافى، تشير الهجنة إلى ظاهرة التفاعل بين أنماط حضارية مختلفة كما تُدرس في الأدب باعتبارها وسيلة لإبراز التعدد اللغوى والتداخل بين الخطابات وقد أصبحت من المفاهيم المفتاحية في الدراسات ما بعد الكولونىالية.

وقد حُدد طبيعة مصطلح الهجنة الثقافية بأنه "يشير عادة إلى خلق أشكال ثقافية جديدة داخل نطاق الاحتكاك الذي يخلقه الاستعمار"¹. ويرز هذا القول البعد التاريخى والسياسى لمفهوم الهجنة الثقافية، ويربطه مباشرة بسياق ما بعد الاستعمار حيث تُنتج الأشكال الهجينة نتيجة للاحتكاك بين الثقافات المستعمرة والمستعمرة. فالهجنة هنا لا تُفهم كنمازج سلمى أو طبيعى بل كنتاج لصراع قوى وهيمنة ثقافية تُؤلد أشكالاً ثقافية جديدة تنبع من التوتر والمقاومة والتفاوض فهذه الرؤية، التي تأثرت بنظريات مفكرين مثل هومي بابا تُظهر كيف أن الهجنة ليست فقط انعكاسًا لتعدد الهويات، بل أيضًا أداة لإعادة تشكيلها في فضاء مفعم بالتوتر التاريخى والسياسى حيث يصبح المهجن مساحة للتحدي وإعادة الكتابة الثقافية.

وتعد الهجنة حسب المستشرق "إدوارد سعيد" خاصة أساسية للهويات المركبة، إذ إن الهوية ليست كياناً ثابتاً أو ساكناً، بل هي خاضعة باستمرار لمنطق التحول والتغير وبأني مفهوم الهجنة بوصفه نقيضاً لفكرة الهوية الصلبة المغلقة، لا سيما وأن جميع الثقافات نتيجة لتجارب تاريخية مثل الاستعمار، متداخلة ومتشابكة فيما بينها فلا وجود لثقافة نقية خالصة بل إن جميع الثقافات تحمل في بنيتها عناصر هجينة تتكون من تفاعلات وتداخلات متعددة، ما يجعلها متحوّلة متمايزة وغير موحدة بشكل مطلق.²

أما عند "هومي بابا" فمصطلح الهجنة يشير إلى الحالة التي تنشأ عندما تتداخل ثقافتان أو أكثر في سياق معين مما يؤدي إلى إنتاج أشكال ثقافية جديدة تختلف عن الأصول التي نشأت منها هذه الهجنة ليست مجرد تمازج بين العناصر الثقافية، بل هي عملية تفاوضية تعيد صياغة الهويات والعلاقات الثقافية بطريقة لا يمكن أن تُحتزل في ثنائية واضحة بين "المهمين" و"التابع" وهنا يُنتج الفضاء الثالث، فهو بابا يتجاوز فكرة الثنائية التي قامت عليه نظرية "إدوارد سعيد" إلى الهجنة والتعددية والافتتاح.³

يوضح بابا في كتابه أن الهجنة الثقافية تتجاوز التصور التقليدي للهويات الثقافية ككيانات ثابتة. ويقول: "الهجنة ليست مجرد خليط بين ثقافتين، بل هي عملية معقدة تُنتج أشكالاً ثقافية جديدة من خلال التفاعل والصراع بين القيم المختلفة".⁴

أما في رواية "القاهرة الصغيرة" لعلمارة لخص فتظهر ملامح الهجنة الثقافية في إحدى مواضعها: "أخذت العنوان وقصدت المطعم بلا ملاحظة وصلت إلى عين المكان سألت عن فليتشي فليلي لي إنه الشخص الواقف أمام الثلاثة سلمت عليه قائلاً: حيث من طرف الحاج حنفي.

- أهلاً وسهلاً أنا اسمي سعيد، بس هنا ينادوني فليتشي، دأ اسمي الحركي ها ها ها.

- تشرفو أنا عيسى.

- حنفي كلمني عنك، وإنك ابن حلال مش زاي التوانسة اللي بيتاجروا في المخدرات.

- كل واحد مسؤول عن نفسه.

لم اهتم كثيراً بفكرة النمطية حول المهاجرين التونسيين المتهمين عادة بالمجارة بالمخدرات فقد مللت من الاستماع إلى استنتاجات سطحية فارغة كالقول إن الصقليين من المافيا والفجر سراق والمسلمين إرهابيين..⁵، إذ يعكس المقتطف ملامح الهجنة الثقافية من خلال التداخل بين الفصحى والدارجة وتعدد اللهجات، إلى جانب تحول الاسم الشخصي إلى اسم حركي يعبر عن هوية مهاجرة متغيرة. كما يظهر وعياً نقدياً بتفكيك الصور النمطية المرتبطة بالجماعات العرقية، وهو ما يعكس تجربة العيش في فضاء ثقافي هجين.

2- الفضاء الثالث:

يرتبط مفهوم الهجنة الثقافية بفكرة الفضاء الثالث (The Third Space) وهو فضاء مفاهيمي يتشكل عند تقاطع الاحتكاك والتفاعل بين الثقافات المختلفة. إذ يرى بابا أن هذا الفضاء يمثل مكاناً لخلق معاني جديدة، حيث تتقاطع الهويات الثقافية وتُعاد صياغتها بعيداً عن التفسيرات الثنائية التقليدية مثل "الغرب/الشرق" أو "الذات/الآخر" إذ يصف بابا الفضاء الثالث بأنه: "منطقة للمعنى والتفاوض الثقافي حيث تلتقي الهويات وتتصادم لتنتج معاني وهويات جديدة لا تعكس فقط التقاليد الثقافية الأصلية، بل تتجاوزها".⁶

يرى هومي بابا أن جميع الأنظمة والبيانات الثقافية تُصاغ داخل ما يسميه بـ "الفضاء الثالث"، وهو فضاء يولد من التقاء الثقافات واختلافها، حيث تُأزس الهجنة بوصفها آلية لإنتاج معاني جديدة. وفي هذا الفضاء، لا تُلغى الاختلافات بل يُفصح عنها وتُحتفى بها، مما يتيح تجاوز ثنائيات الاستقطاب كالـ "نحن" و"الهم"، وبموجب إمكانية إعادة تعريف الذات والآخر خارج منطق الهجنة. إن الاعتراف بهذا الفضاء الهجين يفتح المجال لبناء علاقات ثقافية قائمة على التفاعل والتفاوض، بدلاً من التقابل والتنافر.⁷

فالفضاء الثالث ليس مكاناً مادياً بل هو عملية ديناميكية تحدث داخل العلاقات الثقافية والسياسية إنه فضاء للتحويل حيث يتم تفكيك السرديات المهيمنة وإعادة تشكيلها من خلال الممارسة اليومية للأفراد والجماعات. وسنوضح ذلك من خلال رواية "القاهرة الصغيرة" حيث يظهر تقاطع الثقافات ضمن الفضاء الثالث:

"-من أين أنت ؟

- من تونس.

- هل تتحدث الإيطالية ؟

-نعم.

- هل لديك وثيقة الإقامة

- نعم.

- وما اسمك ؟

-عيسى

-لماذا تطلقون على أنفسكم أسماء غريبة ؟ وماذا يعني ؟

-اسم يسوع بالعربية.

- إذا أنت مسيحي ؟

- لا أنا مسلم أنت مسلم

- وتحمل اسم سيدنا يسوع المسيح أنا لا أفهمكم أتم المسلمين"⁸.

يُجسّد هذا المقتطف ملامح "الفضاء الثالث" من خلال لحظة التقاء ثقافي تتقاطع فيها الهويات الدينية واللغوية والرمزية، حيث يجد الفرد نفسه في موضع تفاوض بين ثقافتين: ثقافته الأصلية الإسلامية والثقافة الأوروبية المستقبلية. اسم "عيسى"، الذي يُعدّ رمزاً دينياً مشتركاً بين الإسلام والمسيحية، يصبح موضع تساؤل وسوء فهم كاشفاً عن فجوة إدراكية يعبرها المتكلم من موقع هجين. هذا التوتر بين الانتماء الديني والتسمية الثقافية يبرز كيف يُعاد تشكيل الهوية داخل فضاء ثالث لا هو بالكامل للذات ولا للآخر بل هو مجال يتفاعل فيه الاختلاف ويُنتج دلالات جديدة تتحدى التصنيفات الثابتة الصلبة.

3- العلاقة بين الهجنة الثقافية والفضاء الثالث:

تمثل الهجنة الثقافية جوهر العمليات التي تحدث في الفضاء الثالث ففي هذا الفضاء تتفاعل الثقافات المتعددة لتنتج هجيناً ثقافياً يعكس التعقيد والتنوع الذي يميز التجارب الإنسانية والعلاقة بينها علاقة تكاملية؛ إذ يُعد الفضاء الثالث الإطار الذي تحدث فيه الهجنة الثقافية وهو في الوقت نفسه نتيجة لهذه العملية.

يشير بابا إلى أن الفضاء الثالث لا يسهم فقط في تفكيك الهويات المهيمنة، بل يمنح صوتاً للمهمشين من خلال خلق مساحة للتفاوض والاعتراف بالاختلاف. وفي هذا السياق يقول: " ففي الفضاء الثالث، تُعاد صياغة السلطة من خلال الاختلافات الثقافية التي لا تُقضي الآخر، بل تحتضنه كجزء من عملية تشكيل الهوية"⁹.

في عالم معولم تسوده الهجرة والتعددية الثقافية يقدم مفهوم الهجنة الثقافية والفضاء الثالث إطاراً لفهم كيفية تفاعل الثقافات في ظل العولمة إذ يسهم هذا الإطار في تفسير ظواهر معاصرة مثل الهجرة، الشتات، والتعددية الثقافية، حيث لا تظل الهويات الثقافية ثابتة، بل تخضع للتغيير والتفاوض في سياقات جديدة.

على سبيل المثال، يمكننا رؤية هذه المفاهيم في الأعمال الأدبية والسينمائية التي تعكس تجارب الهجرة، حيث يصبح الفضاء الثالث مساحة للإبداع الثقافي والتفاعل بين هويات متباينة كما يظهر في الحياة اليومية للأفراد الذين يعيشون بين ثقافات متعددة حيث يتفاوضون باستمرار مع معاني الانتماء والهوية.

ولإبراز العلاقة بينهما أكثر سنحددها من خلال الرواية وذلك في حوار شخصية "عيسى" أو "كريستيانو" مع شرطي الاستنطاق:

" - أنا لست عنصرياً، فلا فرق عندي بين المسلم والمسيحي، بين المهاجر القانوني وغير قانوني كلهم سواسية عندي.. لقد نسيتُ اسمك يجب أن نناديك باسم آخر، ماذا تختار كريستيانو أم تونسني ؟

- لم أتردد للحظة واحدة في التسمية الثانية لا داعي للاستفزاز لأن كريستيانو يعني مسيحي بالإيطالية فالمسلم الذي يطلق على نفسه هذا الاسم في ماركوني كمن يتجول في شعاب مكة والصليب يتدلى من عنقه"¹⁰. إذ يعكس هذا المقتطف تدخّل الهجنة الثقافية مع مفهوم "الفضاء الثالث" عبر لحظة تفاعل تُعزّي التوترات بين الهوية الدينية، والانتماء

الوطني، والسياق الثقافي المضيف. فالبطل يعيش في فضاء هجين لا ينتهي فيه بشكل كامل إلى ثقافته الأصلية أو إلى الثقافة الأوروبية بل يفاوض هويته ضمن واقع معقد تُعاد فيه التسميات والرموز الدينية تأويلاً فاختر اسم "تونسي" بدلاً من "كريستيانو" لا يعكس فقط تمسكاً بالهوية الثقافية الأصلية بل يكشف عن وعي بالتوضع داخل "الفضاء الثالث"، حيث تُصبح الهوية مسرحاً للصراع بين الانسلاخ والانتماء وحيث تُنتج الذات خطاباً هجيناً يرفض الاستيعاب التام في الثقافة المهيمنة وفي الوقت ذاته لا يتفوق على الهوية الأحادية.

ثانياً: الهجنة الثقافية والفضاء الثالث في رواية "القاهرة الصغيرة" لعارة لخص:

تمثل رواية "القاهرة الصغيرة" للكاتب الجزائري "عارة لخص" نموذجاً روائياً هجيناً يعكس تجليات مفهومي "الهجنة الثقافية" و"الفضاء الثالث" كما طورهما المفكر "هومي بابا" فمن خلال السرد الأدبي والشخصيات متعددة الأبعاد يقدم لخص تمثيلات حية للتفاعلات الثقافية التي تنشأ في بيئة الشتات الجزائري في إيطاليا حيث يتداخل المحلي مع العالمي، والذات مع الآخر، في فضاء يعج بالتوترات والإمكانات الثقافية.

في رواية "القاهرة الصغيرة"، تظهر الهجنة الثقافية بوضوح في شخصياتها، التي تعيش بين ثقافتين أو أكثر، مما يؤدي إلى ظهور أشكال جديدة من التفاعل الثقافي والهويات المركبة، على سبيل المثال :

➤ البطل المغاربي الأصل الذي يعمل في إيطاليا كمترح، يجد نفسه وسيطاً بين الجالية العربية والمجتمع الإيطالي. يمثل هذا الدور انعكاساً للهجنة الثقافية، حيث يضطر للتنقل بين لغتين وثقافتين، مع محاولة الحفاظ على هويته الأصلية والتكيف مع بيئته الجديدة.

➤ الشخصيات الداعمة، مثل المرأة الإيطالية التي تقم علاقة مع أحد أفراد الجالية الجزائرية، تقدم مثلاً آخر للهجنة الثقافية، حيث تتمزج تقاليدها الأوروبية مع القيم التي يحملها شريكها من خلفية عربية. يشير هومي بابا إلى أن الهجنة الثقافية ليست مجرد تمازج أو قبول متبادل، بل هي عملية تفاوضية تحدث في سياقات مليئة بالصراع والاختلاف هذه الديناميكية تتجلى في الرواية عندما يصطدم الأبطال بتحديات مثل العنصرية، التمييز، أو محاولة الحفاظ على هوية دينية وثقافية في مجتمع علماني غريب عنهم. يمثل الحلي الذي تدور فيه أحداث الرواية تجسيداً للفضاء الثالث كما يصفه هومي بابا. الحلي، المعروف بـ "القاهرة الصغيرة" هو فضاء جغرافي واجتماعي يلتقي فيه الجزائريون والمهاجرون العرب مع الإيطاليين لكنه أكثر من مجرد مكان؛ إنه فضاء مفاهيمي حيث يتم التفاوض بين الهويات الثقافية المختلفة.

➤ التداخل اللغوي: في الرواية، تتعدد اللغات المستخدمة بين الشخصيات (العربية، الإيطالية، وحتى اللهجات المحلية كالحجازية، التونسية، المصرية) مما يعكس تفاعلاً لغوياً وثقافياً مستمرًا هذا التعدد اللغوي يمثل الفضاء الثالث حيث تُعاد صياغة المعاني والهويات.

➤ الممارسات الدينية: تبرز الرواية الممارسات الإسلامية في سياق أوروبي. على سبيل المثال، مشاهد صلاة الجماعة أو احتفالات رمضان، التي تُقام في فضاء مختلط بين السكان العرب والإيطاليين تعبر عن الفضاء الثالث الذي تتفاعل فيه القيم الدينية مع السياق العلماني الأوروبي.

➤ الصراعات الاجتماعية: الرواية تقدم صورة للتوترات التي تنشأ نتيجة اختلاف القيم بين المجتمعين. على سبيل المثال يظهر الفضاء الثالث بوضوح عندما تحاول الشخصيات المهاجرة تحقيق التوازن بين تقاليدها الأصلية ومتطلبات الاندماج في المجتمع الإيطالي.

يمكن اعتبار الهجنة الثقافية التي تعيشها الشخصيات نتاجاً مباشراً للفضاء الثالث الذي توفره البيئة متعددة الثقافات في الرواية. فبينما يجد الأبطال أنفسهم في فضاء يفرض عليهم التفاعل مع ثقافات مختلفة يتم إنتاج هويات هجينة تعكس تعقيدات الانتماء في عالم معولم.

وفقاً لطرح هومي بابا، تُظهر رواية "القاهرة الصغيرة" كيف يصبح الفضاء الثالث مجالاً لتحطيم الحدود بين الثقافات وإنتاج معانٍ وهويات جديدة. يصف بابا الفضاء الثالث بأنه "ليس مساحة للانسجام السطحي، بل هو منطقة مليئة بالتوترات التي تُنتج ديناميكيات جديدة تُعيد تشكيل المعنى والهويات"¹¹.

تتجلى هذه الديناميكيات في الرواية من خلال :

— التفاعل الاجتماعي بين الإيطاليين والعرب، الذي يتأرجح بين التعاون والصراع .

— إعادة التفاوض حول السلطة، حيث تتمكن الشخصيات المهاجرة من إيجاد طرق جديدة للتعبير عن نفسها رغم الهامشية التي تواجهها.

تمثل رواية "القاهرة الصغيرة" تجسيداً أدبيّاً مميزاً لمفهوم الهجنة الثقافية والفضاء الثالث كما طرحها هومي بابا من خلال شخصياتها وسردها المتشابك، كما تعكس الرواية كيف تُعاد صياغة الهويات في فضاءات التفاعل الثقافي حيث يصبح الفرد جزءاً من عملية تفاوض مستمرة بين الذات والآخر. يُظهر لخص من خلال نصه الروائي أن الهجنة الثقافية ليست حالة ثابتة، بل عملية دائمة الحدوث في الفضاء الثالث مما يجعلها جزءاً أساسياً من التجربة الإنسانية في عصر الهجرة والعولمة.

1- إعادة إنتاج الآخر: خطاب الإقصاء والهجنة الثقافية في تمثيلات العنف الديني:

يشكل الخطاب الإعلامي حول الدين والسلام والعنف تحدياً دائماً في ظل تنامي التوترات الثقافية والدينية عالمياً. يعد هذا النوع من الخطاب أحد الأدوات التي يمكن أن تعكس رؤى متباينة تتراوح بين الإقصاء والتفاهم في هذا السياق، تقدم رواية "القاهرة الصغيرة" مشهداً لبرنامج إذاعي يناقش العلاقة بين السلام والدين حيث تتجلى فيه اختلافات المواقف تجاه القضايا الدينية والتاريخية بينما كانت "صوفيا" إحدى الشخصيات المحورية في الرواية، تقوم بشؤونها المنزلية، جذب انتباهها برنامج إذاعي يُبث على إحدى القنوات العامة كان النقاش يدور حول علاقة الدين بالسلام والعنف، بحضور اثنين من الخبراء المتخصصين خلال الحوار، أطلق أحدهم تعليقاً أثار الجدل بقوله: "إن الشر متجذر في الإسلام، وقد أنتج العنف والصراعات على مر القرون الطامة الكبرى هي أن المسلمين تحديداً، لا يعرفون معنى الحب".¹²

أثار هذا الرأي حفيظة الضيف الآخر، الذي سارع إلى الرد بقوله :

"ليس المسلمون وحدهم من استخدموا الدين كمبرر للعنف، بل ارتكب المسيحيون واليهود والهندوس أيضاً أعمال عنف باسم العقيدة. يكفيّا نحن الكاثوليك أن نتذكر محاكم التفتيش في القرون الوسطى".¹³ كان هذا النقاش مشحوناً بالتوترات التي لم تقتصر على تبرير العنف، بل كشفت عن رؤية غربية نمطية تجاه المسلمين. بدا أن الخطاب الذي تنبأه أحد الخبراء يعكس رؤية أحادية ومتحيزة، تستخدم الماضي كأداة لإقصاء الآخر، ولتعزير صورة نمطية تربط الإسلام بالعنف والتطرف.

يتجلى في هذا المشهد الخطاب الذي يحاول استدعاء التاريخ بأسلوب انتقائي لترسيخ صورة سلبية عن الآخر، حيث يُختزل الإسلام في تصورات نمطية تقتصر على التوازن. هذا النوع من السرد يعكس ما وصفه هومي بابا في "موقع الثقافة": بأنه "إعادة إنتاج للسلطة عبر بناء الآخر على نحوٍ يقصيه ويُسوّه صورته".¹⁴

لكن الرد الذي قدمه الخبير الآخر كان محاولة لتقديم منظور أكثر شمولية، يعترف بأن العنف المرتبط بالدين ليس مقتصرًا على ثقافة أو دين بعينه فالتاريخ كما أوضح، حافل بأمثلة عن استغلال الدين في جميع الثقافات مشيرًا إلى حقبة محاكم التفتيش التي تُعد من أسوأ مراحل العنف الديني في التاريخ المسيحي.

"صوفيا" التي اكتفت بالاستماع، تجسّد القارئ أو المشاهد المتأمل الذي يحاول الخروج بحكم موضوعي من هذا الجدل كان النقاش الإذاعي يعكس صراعاً بين رؤيتين: الأولى تسعى لتكريس صورة إقصائية عن الآخر، والثانية تدعو إلى فهم أعمق لتاريخ العنف بوصفه ظاهرة إنسانية عامة تتجاوز حدود الدين أو الثقافة.

في النهاية، يبدو أن المعضلة ليست فقط في تحليل التاريخ بل في الطريقة التي يُوظف بها هذا التاريخ لصياغة تصوراتنا الحالية قد تكون الرسالة هنا دعوة إلى تجاوز النظرات الأحادية، واعتماد مقاربة أكثر شمولية تضع الأمور في سياقها الإنساني العام بدلاً من استخدامها لتعزيز الانقسامات والصراعات.

تُظهر التوترات الثقافية والدينية بين الشرق والغرب عمق التعقيد الذي تنطوي عليه العلاقة بين الهوية والآخر وفقاً لنظرية "هومي بابا" فيتم إنتاج "الفضاء الثالث" كحقل تفاوضي يعيد صياغة التصورات الثقافية التقليدية ويخلخل ثنائيات المركز والهامش، مما يسمح بظهور هويات هجينة ومعقدة تتحدى السرديات الأحادية.

تظهر بعض وسائل الإعلام الغربية كوسيط مزدوج يروج لشعارات تدعم الحوار والسلام العالمي بينما تساهم في الوقت نفسه في تكريس الصور النمطية والإقصائية تجاه الآخر، خاصة المسلم كما تنص المواثيق الدولية مثل مبادئ الأمم المتحدة على دعم التعددية الثقافية والتفاهم بين الشعوب، فإن الإعلام في كثير من الأحيان ينحرف عن هذه المبادئ عبر تقديم الإسلام كعدو مفترض للغرب.

تمثل هذه الديناميات في الطريقة التي تُقنَّبس بها مقولات تاريخية عن الإسلام والمسلمين، حيث تُصورهم وسائل الإعلام العالمية على أنهم محور للعنف والتهديد يتم بث هذه الرسائل وتكرارها ما يؤدي إلى تعميق سوء الفهم المتبادل كما أن هذا الخطاب يُعد امتداداً لتوترات قديمة تعود إلى الحروب الصليبية، حيث تم تأطير العلاقة بين الشرق والغرب ضمن معادلات الصراع والانقسام.

يقدم "هومي بابا" في *موقع الثقافة* مفهوم "الفضاء الثالث" بوصفه مجالاً لإعادة التفاوض بين الثقافات المتصارعة، هذا الفضاء لا يعترف بالمركزية أو الثنائيات المطلقة، بل يُنتج هويات هجينة تتجاوز الصور النمطية في السياق الأوروبي الحالي، يمكن رؤية هذه الهجنة في الجاليات المسلمة التي تمثل تداخلاً بين القيم الإسلامية والثقافات الغربية. ومع ذلك، فإن الخطاب الإعلامي المهيمن يرفض الاعتراف بهذه الهجنة ويعزز السرديات الإقصائية فالإعلام الذي يدعي مكافحة العنف والإرهاب يستدعي ضمناً أيديولوجيات التفوق الثقافي والحضاري، مما يؤدي إلى تشويه صورة المسلمين عبر إبرازهم كتهديد أمني أو ثقافي.

تؤدي هذه التصورات إلى تضيق الفضاء التفاوضي بين الثقافات، مما يعطل محاولات تعزيز التعددية الثقافية. وبدلاً من قبول الآخر، تُستخدم هذه السرديات لتبرير الهيمنة والإقصاء، مما يؤدي إلى تفاقم التوترات والانقسامات. وتدعو نظرية هومي بابا إلى تجاوز هذه الثنائيات عبر استغلال "الفضاء الثالث" كمساحة للتفاعل الثقافي المنسج في هذا السياق، يمكن قراءة الخطاب الإعلامي الراهن كدعوة للتأمل في دوره في تشكيل الهويات وتعزيز الحوار بدلاً من الانقسام إن إدراك الهجنة الثقافية والاعتراف بها قد يكون خطوة نحو فهم أعمق للآخر، يتجاوز الصور النمطية ويؤسس لعالم أكثر تعددية وتسامحاً.

2- المرأة بين قيود الماضي وآفاق التحرر: رؤية عابرة للثقافات:

في المجتمعات المختلفة، تتجلى قضايا المرأة في صور متباينة، لكنها تشترك في كونها محاور لصراعات بين التقاليد والتحول الحديثة. النص يعالج رؤية مقارنة بين المرأة العربية المرتبطة بتقاليد دينية واجتماعية صارمة، وبين المرأة الغربية، خاصة الإيطالية، التي تبدو في ظاهرها أكثر تحرراً لكنها تواجه مشكلات من نوع آخر.

الصدقتان، صوفيا العربية وأنجيلا الإيطالية، تمثلان رؤيتين متناقضتين أنجيليا، التي تحررت من زواج انتهى بطلاق مؤلم ترى أن الخلاص يكمن في التخلص من التقاليد التي تكبل المرأة بالنسبة لها، التحرر يعني الانعتاق من القيود الاجتماعية التي تجعل من النساء أدوات لتحقيق رغبات المجتمع الذكوري. ترى أنجيليا أن المرأة الغربية، رغم ما يبدو من حريتها الظاهرة لا تزال تُستغل عبر معايير جالية تجارية تُحول جسدها إلى سلعة تُستهلك في وسائل الإعلام.

على الجانب الآخر، صوفيا تعبر عن تجربة مختلفة تماماً. فهي ترى أن الحفاظ على القيم والتقاليد، حتى لو كانت مقيدة في نظر الآخرين يمكن أن يوفر للمرأة نوعاً من الحماية والكرامة. صوفيا تشكك في مفهوم الحرية الغربي الذي يجعل من المرأة "حرة" ظاهرياً لكنه يقيد بها بمعايير رأسمالية غربية تجعل الجسد محموراً لكل شيء.

القضية هنا ليست مجرد خلاف ثقافي، بل هي تعبير عن تعقيدات أكبر تتعلق بمكانة المرأة في العالم الحديث فبينما تروج المجتمعات الغربية لفكرة التحرر، نجد أن التحرر نفسه خاضع لمنظومات اقتصادية واجتماعية تسعى لاستغلال المرأة. أما في المجتمعات الشرقية فإن التقاليد، رغم كونها وسيلة للحفاظ على الهوية، تتحول في كثير من الأحيان إلى أدوات للسيطرة تُقيد حريات النساء وتحد من خياراتهن الشخصية.

النص يفتح الباب للنقاش حول مفهوم "الحرية الحقيقية" هل الحرية هي التخلص من القيود الخارجية فقط؟ أم أنها تشمل التحرر من أشكال الاستغلال الخفية أيضاً؟ هل يمكن للمرأة أن تحقق ذاتها في ظل منظومات تُشكلها العولمة والرأسمالية، أم أن الحل يكمن في إيجاد توازن بين الأصالة والتقدم؟

يتناول النص قضايا المرأة من منظور عابر للثقافات، مسلطاً الضوء على التشابهات والاختلافات بين المجتمعات وبينما تتصارع صوفيا وأنجلا حول مفهوم التحرر، يُظهر النص أن القضايا المتعلقة بالمرأة معقدة ولا يمكن حصرها في ثنائية الشرق والغرب فسواء كانت المرأة تعيش في مجتمع محافظ أو ليبرالي، تظل مسألة تحقيق الذات والتخلص من أشكال القمع والاستغلال رحلة طويلة تحتاج إلى وعي مشترك وجهود متكاملة لإعادة صياغة مفاهيم الحرية والكرامة.

تتحدث شخصية " صوفيا" المصرية عن صديقتها "أنجلا" الإيطالية: " أنجلا ليست متزوجة، لكنها تعاشر رجلا هو في نفس الوقت أبو ابنها، لا تناديه أبداً "زوجي" وتكتفي بكلمة "رفيقي" لهذا فهي رفيقة وليست زوجة، يقمان تحت نفس السقف ويقتسمان نفس السرير، ولكنها غير متزوجين؟ هذه المسألة معقدة قليلاً بالنسبة لمسلمة مصرية مثلي... الحقيقة أنني لا أستطيع أن أتصور نفسي في مكانها أي أن أعيش مع رجل وأحب منه بلا زواج، بالنسبة لي هذا من رابع المستحيلات قد أقع تحت طائلة الزنا والعياد بالله ثم ما ذنب المولود المسكين في خطيئة م يرتكبها؟ في عيون الناس يكون ابن زنا أو ابن حرام وسيتقى كذلك إلى المات".¹⁵

يتناول النص قضية معقدة تتعلق بالعلاقة بين الرجل والمرأة، مع التركيز على التباين الثقافي بين المرأة العربية والمرأة الغربية إذ يقدم النص أنموذجاً لخطاب على لسان شخصية "صوفيا"، التي تصف اختلافاتها الثقافية والاجتماعية مقارنة بصديقتها "أنجلا" تقول "أنجلا" إنها ليست زوجة بالمعنى التقليدي، بل تفضل أن تكون "رفيقة" لشريكها، دون الحاجة إلى الزواج الرسمي يعيش الاثنان تحت سقف واحد ويتشاركان السرير نفسه لكنها لا يمثلان علاقة زواج نموذجية كما تفهم في المجتمعات الشرقية.

"صوفيا" وهي شخصية مسلمة مصرية، تجد صعوبة في تصور حياة كهذه مشيرة إلى أن إنجاب الأطفال خارج إطار الزواج أمر غير مقبول تماماً بالنسبة لها، وتراه مستحيلاً ضمن منظومة القيم التي تؤمن بها، حيث تعتبره بمثابة الوقوع في خطيئة الزنا. ويمكن تحليل المقطع الروائي على الشكل الآتي:

أ- الصراع الثقافي والاختلافات الاجتماعية:

النص يعكس التباين الثقافي بين شخصية "صوفيا" المصرية المسلمة و"أنجلا" الإيطالية. يُظهر هذا التباين منظوراً ثقافياً ودينيًا مختلفاً حول العلاقة بين الرجل والمرأة. فبينما ترى "أنجلا" أن العيش مع "رفيق" وإنجاب طفل خارج إطار الزواج أمراً طبيعياً ومقبولاً في ثقافتها، تجد "صوفيا" أن هذا التصور يتعارض جذرياً مع قيمها الإسلامية والتقاليد الاجتماعية التي نشأت عليها. هذا التناقض يعكس فكرة التفاوض الثقافي التي طرحها هومي بابا، حيث يتقاطع الموروث الثقافي مع تجارب الحداثة.

ب- الهوية الثقافية والدينية:

"صوفيا" تعبر عن هويتها بوضوح من خلال موقفها الراض لما تعتبره "انحرافاً" عن القيم الإسلامية. الهوية هنا ليست مجرد انتماء ديني، بل تعبير عن طريقة تفكير وسلوك يحدد علاقاتها مع الآخرين. يُظهر النص أن الدين بالنسبة لـ "صوفيا" ليس مجرد شعائر، بل إطار أخلاقي واجتماعي يضبط السلوك ويحدد المقبول والمرفوض.

ج- الوصم الاجتماعي والشعور بالخطيئة:

إحدى النقاط المحورية التي تبرز في حديث "صوفيا" هي الوصم الاجتماعي المرتبط بالأطفال الذين يولدون خارج إطار الزواج. تُظهر هذه النقطة الفارق بين المجتمعات التقليدية، حيث يُعتبر الزواج إطاراً ضرورياً للعلاقات الإنسانية ولإضفاء الشرعية على النسل، والمجتمعات الأكثر افتتاحة التي ترى هذه الأمور من منظور فردي. بالنسبة لـ "صوفيا"، المخاوف ليست فقط دينية، ولكنها أيضاً اجتماعية، حيث تعكس القلق من حكم المجتمع ومن وصمة "ابن الحرام".

د- النظرة الأخلاقية الناتية:

النص يبرز أيضاً الارتباط العميق بين الأخلاق والدين في حياة "صوفيا". تعبيرها عن عدم قدرتها على تخيل نفسها في مكان "أنجلا" يشير إلى قوة الإيمان والمعتقدات التي تشكل جزءاً من وعيها الذاتي كما تُظهر الصراع الداخلي الذي قد تواجهه المرأة المسلمة عندما تكون في سياق ثقافي مختلف، حيث تُختبر القيم الشخصية أمام معايير جديدة.

هـ- السياق النفسي والاجتماعي:

"صوفيا" تظهر مزيجًا من التأمل والرفض تجاه تجربة "أنجلا" التأمل يتجلى في إدراكها للتباين الثقافي وتعبيرها عن تعقيد المسألة بالنسبة لها أما الرفض، فيتجسد في موقفها القاطع من عدم تقبل الفكرة حتى على المستوى النظري فالنص يوحي بأن "صوفيا" تجد الأمان في وضوح القيم الإسلامية التي تقدم إطارًا متمسكًا بحياتها مقارنة بما تراه فوضى أخلاقية محتملة في تجربة "أنجلا".

تقدم الرواية صورة غنية عن التداخل الثقافي والتفاوض بين الهويات المختلفة. بينما يعكس منظور "أنجلا" الانفتاح والتقبل الفردي، يقدم منظور "صوفيا" تمسكًا قويًا بالهوية الدينية والقيم الاجتماعية هذا التناقض يمثل ساحة خصبة للتأمل في تأثير الثقافة والدين على تشكيل الهويات والمواقف.

يناقش النص كذلك طبيعة التفاعل الثقافي بين الشرق والغرب، مشيرًا إلى التباينات بين الثقافة الإيطالية التي تحمل أبعادًا ليبرالية في العلاقات، والثقافة الشرقية التي تتميز بتركيزها على القيم التقليدية يستعرض الكاتب هذه الموضوعات من خلال السرد، الذي يتحدى الصور النمطية ويكسر القوالب التقليدية المرتبطة بأدوار المرأة كما يتناول النص توازنات الحياة بين المرأة الشرقية والإيطالية، مسلطًا الضوء على التحديات والصراعات التي تنشأ نتيجة التفاوت في القيم والمعايير الاجتماعية.

3- صراع الهويات: التمييز العنصري وواقع المهاجرين في المجتمعات الغربية:

تعكس الرواية مشكلة التمييز العنصري التي يواجهها المهاجرون في المجتمعات التي يعيشون فيها تتناول الرواية تجربة شخصية لشخصية تُدعى "صوفيا" المرأة المصرية المسلمة التي تعرضت لظروف مهينة من قبل رجل إيطالي عنصري كان يحاول التقليل من شأنها بسبب أصولها واعتقد بشكل سلمي أنها لم تكن تتحدث الإيطالية بشكل جيد. هذا الموقف يعكس التحديات اليومية التي يواجهها المهاجرون في المجتمعات الغربية عليهم، حيث تتزايد مشاعر الاحتقار والتمييز تجاههم وهذا ما عبرت عنه شخصية "صوفيا" قائلة:

"سبقتني رجل في الخمسينيات من عمره، في البداية ظننته لم يرني ولكنني كنتُ مخطئة لقد فعلها عمدا، نظر إلي باستخفاف ووقاحة قال لي:

جئتُ قبلك هل تفهمين الإيطالية؟

أنا أفهم الإيطالية جيدا، أنت قليل الأدب.

مومياء وتتكلم لماذا لا ترجعين إلى بلادك؟ لماذا تأتون إلى هنا لاختلاق المشاكل وتدير التفجيرات؟

أنت غبي

اذهي أنتِ وبرقعك إلى أفغانستان، إذا لم تنصرفي حالا سأفقد صوابي وأشبعك ضربا.

دفعني الغبي بيده ففقدت توازني وسقطت".¹⁶

تواجه العديد من المجتمعات المهاجرة مشكلات متزايدة تتعلق بالتمييز العنصري في حياتهم اليومية، كثيرا ما يواجه المهاجرون أشكالًا مختلفة من الإهانة سواء في الفضاء العام أو في أبسط المواقف الاجتماعية ففي أغلب الأحيان يواجهون ازدراءً علنيًا وتعرضًا للتقليل من شأنهم وفي بعض الحالات، يمتد هذا السلوك إلى العنف اللفظي أو الجسدي. وتركز نظرية هومي بابا على مفهوم "الهويات الهجينة" أو "الهويات المتناقضة" التي تساعد في فهم كيفية تفاعل المهاجرين مع المجتمع الجديد. وفقًا لبابا، يعيش المهاجرون في حالة من التوتر بين الثقافات الأصلية والثقافات التي ينتمون إليها في البيئة الجديدة هذه الهويات المتناقضة تؤدي إلى انقسام داخلي يمكن أن يتسبب في مشاعر الاغتراب وعدم التقبل.

في حالة "صوفيا"، يظهر التفاعل مع الرجل الإيطالي على أنه محاولة لتأكيد التفوق الثقافي على المهاجرين فهو لا يرى صوفيا كفرد مستقل بذاته بل ككائن تابع يجب أن يتبع قواعد الثقافة الإيطالية التي يمثلها. نظرة الرجل لصوفيا وحكمه عليها بسبب خلفيتها الثقافية يعكس الفجوة الثقافية ويظهر كيف يمكن للآخرين أن يفرضوا هويات معينة على المهاجرين ويظهر المفهوم المركزي في نظرية بابا هنا في كون المهاجرين ليسوا مجرد ضحايا للتمييز بل هم أيضًا فاعلون في بناء هويتهم الخاصة من خلال التفاوض مع هويات الثقافات المتعددة هذا التفاوض بين الثقافات هو ما يخلق "الهويات الهجينة" التي تكون معقدة وتحتاج إلى فهم عميق لكيفية تفاعل الأفراد مع بيئاتهم الثقافية المتعددة.¹⁷

إذن، يتبين من خلال هذا التحليل أن معركة "صوفيا" ليست مجرد مقاومة للتمييز العنصري بل أيضاً مقاومة لبناء هوية مستقلة في ظل الظروف الصعبة التي تفرضها المجتمعات الغربية، فشخصية الرجل الإيطالي يمثل الفرد العنصري الذي يعبر عن سخطه تجاه "صوفيا" بطريقة مهينة وعنيفة، ويقوم بنعتها بكلمات تحط من كرامتها وتؤكد على التمييز العنصري الذي يكنه للمهاجرين لا يتوقف الرجل عند النعوت اللفظية بل يتبعها بتصرف عنيف حيث قام بدفع صوفيا مما أدى إلى سقوطها. هذه التصرفات تظهر عمق العداء والعنصرية حيث استند هذا الرجل على عوامل ثقافية ودينية لفرض تفوقه على صوفيا ورفض تقبلها كجزء من المجتمع.

نظرية هومي بابا تركز على "الاستعمار الثقافي" و"الهويات الهجينة" فالتفاعلات الثقافية بين المهاجرين والمجتمعات الأصلية تشكل هويات معقدة ومتداخلة، التي تعكس صراعاً بين الثقافات والهويات¹⁸، في هذا النص يظهر الرجل الإيطالي وهو يعبر عن موقفه العنصري تجاه صوفيا استناداً إلى الهوية الثقافية والعرقية فهو لا يعترف بتعددية الهوية ولا يراها جزءاً من المجتمع الإيطالي بل يحاول فرض "هوية نقية" تكون خالية من أي تأثيرات ثقافية أخرى. في هذا السياق، يُعتبر رفض الرجل قبول المهاجرين واستمرارهم في فرض هوياتهم الثقافية بمثابة محاولة للتمسك بسلطة ثقافية وعرقية، الأمر الذي يؤدي إلى عدم التعايش أو تقبل الآخر المختلف من خلال هذا الفعل يظهر التوتر الثقافي الذي يعيشه المهاجرون، وهو توتر يتجلى في محاولة تكيفهم مع معايير الثقافة الأصلية أو رفضهم بشكل كامل مما يخلق حالة من الاعتزاز.

التفاعل العنصري في النص يعكس ما يشير إليه بابا في نظرية "الاختلاف الثقافي"، حيث يعبر عن الصراع الناتج عن محاولة الهيمنة الثقافية والسياسية، مما يجعل الأشخاص الذين ينتمون إلى ثقافات مختلفة يشعرون بأنهم غرباء في الأماكن التي يُفترض أن تكون "آمنة" أو "مستقبلية" بالنسبة لهم.

النص يسلط الضوء على التحديات التي يواجهها المهاجرون خاصة فيما يتعلق بالتمييز العنصري من قبل المجتمعات الغربية من منطلق يُظهر النص كيف يتم تصوير المهاجرين من قبل البعض في الغرب على أنهم مصدر للمشاكل والتفجيرات، وهي صورة نمطية تقتصر إلى الأسس الواقعية وتستند إلى خلفيات ثقافية متجذرة في الصراع بين الشرق والغرب هذه التصورات لا تعكس الحقائق الحياتية للمهاجرين بل هي انعكاس لإيديولوجيات ثقافية قديمة تحاول تبرير العنصرية والتفرقة ضدهم.

رسم الرجل الإيطالي صورة نمطية للمهاجرين، من خلال ربطهم بالمشاكل والتفجيرات على الرغم من أن هذه الاتهامات لا تستند إلى أي واقع بل تأتي من خلفية ثقافية معقدة، مدفوعة بالصراع التقليدي بين الشرق والغرب هذه الصور النمطية تُظهر بشكل كبير مدى تأثير هذه الإيديولوجيات الثقافية التي تؤثر على المواقف تجاه المهاجرين. في الحقيقة، فإن التمييز ضدهم لا يعكس أي من واقعهم الاجتماعي أو الثقافي بل هو نتيجة لتوترات قديمة.

طبقاً لهومي بابا، فإن التصورات التي يروجها الرجل الإيطالي عن المهاجرين تمثل نموذجاً حياً للاستعمار الثقافي الذي يعزز "الآخر" الفكرة هنا ليست فقط تصنيف المهاجرين على أنهم تهديد ثقافي بل أيضاً محو أي إمكانية لتفاعل إيجابي بينهم وبين المجتمع المحلي. بابا يركز على فكرة "المساحات الهجينة" أو "الهوية الهجينة"، حيث يتم تشكيل الهويات عبر تفاعلات مستمرة مع الآخر، وبالتالي يصبح المهاجرون في مواجهة مستمرة مع الصور النمطية التي يتم فرضها عليهم من قبل المجتمعات الغربية.

كما يوضح النص كيف أن "صوفيا" إحدى الشخصيات التي تعرضت للتمييز العنصري، بدأت تشعر بأن رفض هذه الصور النمطية لا يتعلق فقط بالملابس أو المظهر بل هو قضية تتعلق بالكرامة كما ترى أن القول بهذه المعاملة لم يعد خياراً بل يجب أن تواجهها وتدافع عن نفسها ضد هذه الأنماط الثقافية التي تضعها في موقف "الآخر".

إن هذه التحديات التي يواجهها المهاجرون تشمل الهويات المتعددة التي يحاولون الحفاظ عليها وسط بيئة معادية ففي النهاية، المهاجرون لا يواجهون فقط تحديات مرتبطة بالمكان واللغة بل تحديات أعمق تتعلق بالتكيف مع أنظمة ثقافية ترفضهم بشكل أساسي.

خاتمة:

في ظل تزايد موجات الهجرة والعولمة، أصبحت قضايا الهوية والتفاعل الثقافي محط اهتمام الدراسات الثقافية لما بعد الكولونيالية ويُعد مفهوم "هجرة الفضاء الثالث" كما قدمه هومي بابا، إطارًا نظريًا لفهم ديناميكيات التفاوض بين الهويات المختلفة في بيئات متعددة الثقافات كما يتيح هذا المفهوم تحليل التداخلات الثقافية واللغوية والدينية، خاصة في الأدب الذي يعكس تجارب الهجرة والتحول الاجتماعي. تناول هذا البحث رواية القاهرة الصغيرة للكاتب الجزائري عمارة لخص نموذجه سردي يعبر عن تعقيدات الهجرة الثقافية، وسعى إلى استكشاف تجليات الفضاء الثالث ودوره في إعادة تشكيل الهويات الإنسانية في سياقات معاصرة، ويمكن تلخيص أهم نتائج البحث في النقاط الآتية:

- أبرزت الدراسة أن الهجرة الثقافية ليست حالة ثابتة، بل عملية ديناميكية تُثري التجربة الإنسانية، مع وجود توترات تعكس الفوارق الاجتماعية والسياسية..
- أظهرت الرواية كيف يصبح "الفضاء الثالث" منطقة للتفاوض بين الهويات، حيث يُعاد تشكيل المعاني بعيدًا عن الثنائية التقليدية بين "الأنا" و"الآخر".
- تُظهر الرواية تداخلًا لغويًا وثقافيًا يعكس طبيعة الهجرة، من خلال تعدد اللهجات، وتبني أسماء جديدة، وتجاوز الصور النمطية.
- تتجلى الهجرة الثقافية في رواية القاهرة الصغيرة كعملية تفاوض بين الانتماء الأصلي وسياقات العيش الجديدة، مما ينجح هويات مرنة ومركبة.
- "الفضاء الثالث" كما طرحه هومي بابا يبرز بوضوح في الرواية من خلال مستويات التداخل الثقافي بين الشخصيات الروائية، حيث تُعاد صياغة الهوية في مناطق التقاطع بين الذات والآخر.
- التسمية، والانتماء الديني، واللغة تصبح أدوات لإعادة تعريف الذات ضمن بيئة متعددة الثقافات، ما يدل على وعي الذات المهاجرة بموقعها الهجين.

الإحالات:

- 1- بيل اشكروفت هيلين، وتيفين غاريت غريفيت، دراسات ما بعد الكولونيالية المفاهيم الرئيسية، ترجمة أحمد الروبي، تقديم كريمة سالم، المركز القومي للترجمة الطبعة 1، القاهرة، مصر، 2010، ص: 199.
- 2 - ينظر: ادوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية، ترجمة كمال أبوديب، دار الآداب للنشر والتوزيع، الطبعة 4، بيروت، لبنان، 2014، ص: 24.
- 3- محمد الجرطي، ادوارد سعيد من تفكيك المركزية الغربية إلى فضاء الهجرة والاختلاف، منشورات المتوسط، إيطاليا د/ت، ص: 151.
- 4- هومي بابا، موقع الثقافة، تر: نادر ذيب، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر، ط1، 2004، ص: 37.
- 5- عمارة لخص، القاهرة الصغيرة، ص: 115.
- 6- المرجع نفسه، ص: 54.
- 7- هومي بابا، موقع الثقافة، ص: 100.
- 8- عمارة لخص، القاهرة الصغيرة، ص: 116.
- 9- المرجع نفسه، ص: 72.
- 10- عمارة لخص، القاهرة الصغيرة، ص: 117.
- 11- هومي بابا، موقع الثقافة، ص: 62.
- 12- عمارة لخص، القاهرة الصغيرة، منشورات الحبر، الجزائر، 2022، ص: 95.
- 13- عمارة لخص، القاهرة الصغيرة، ص: 96.
- 14- هومي بابا، موقع الثقافة، ص: 178.

- 15- عمارة لخص، القاهرة الصغيرة، ص: 103-104
- 16- عمارة لخص، القاهرة الصغيرة، ص: 124.
- 17- ينظر: هومي بابا، موقع الثقافة، ص: 194-195.
- 18- ينظر: المرجع نفسه، ص 25.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1- ادوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية، ترجمة كمال أبودييب، دار الآداب للنشر والتوزيع، الطبعة 4، بيروت، لبنان، 2014
- 2- بيل اشكروفت هيلين تيفين غاريت غريفيت، دراسات ما بعد الكولونيالية المفاهيم الرئيسية، ترجمة أحمد الروبي، تقديم كرمة سالم، المركز القومي للترجمة الطبعة 1، القاهرة، مصر، 2010
- 3- عمارة لخص، القاهرة الصغيرة، منشورات الخبر، الجزائر، 2022.
- 4- محمد الجرطي، ادوارد سعيد من تفكيك المركزية الغربية إلى فضاء الهجنة والاختلاف، منشورات المتوسط، إيطاليا د/ت
- 5- هومي بابا، موقع الثقافة، تر: ثائر ذيب، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر، ط1، 2004.